والخلافة من آدم بجدارة روحية[١] أماهية من نَظِرات الحال الخفية في تلك

= وأنبيائه ورسله والمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات من حرام ولم يكن له من القدرة ما يخلقهم من الحلال وقد أخذ ميثاقهم على الحلال والطهر الطيب والله لقد تبينت أن بعض البهائم تنكرت له أخته فلما نزا عليها ونزل كشف له عنها وعلم أنها أخته أخرج غرموله ثم قبض عليه بأسنانه ثم قلق ثم خر ميتاً، قال زرارة ثم سئل عليه السلام عن خلق حواء وقيل له أن أناساً عندنا يقولون إن الله عز وجل خلق حواء من ضلع آدم الأيسر الأقصى؟ قال: سبحان الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً يقول من يقول هذا إن الله تبارك وتعالى لم يكن له من القدرة ما يخلق لآدم زوجة من غير ضلعه وجعل لمتكلم من أهل التشنيع سبيلاً إلى الكلام يقول: إن آدم كان ينكح بعضه بعضاً إذا كانت من ضلعه ما لهؤلاء حكم الله بيننا وبينهم! ثم قال: إن الله تبارك وتعالى لما خلق آدم من طين أمر الملائكة فسجدوا له وألقى عليه السبات ثم ابتدع له خلقاً ثم جعلها في موضع النقرة التي بين ركبتيه وذلك لكي تكون المرأة تبعاً للرجل فأقبلت تتحرك فانتبه لتحركها فلما انتبه نوديت تنحي عنه فلما نظر إليها نظر إلى خلق حسن يشبه صورته غير أنها أنثى فكلمها بلغته فقال لها: من أنت؟ فقالت: خلق خلقني الله كما ترى، فقال آدم عند ذلك يا رب من هذا الخلق الحسن الذي قد آنسني قربه والنظر إليه؟ فقال: الله هذه أمتي حواء أفتحب أن تكون معك فتؤنسك وتحدثك وتأتمر لأمرك؟ قال: نعم يا رب ولك بذلك الشكر والحمد ما بقيت، فقال تبارك وتعالى فأخطبها إليَّ فإنها أمتي وقد تصلح أيضاً للشهوة، وألقى الله عليه الشهوة وقد علم قبل ذلك المعرفة فقال: يا رب فإني أخطبها إليك فما رضاك لذلك؟ قال: رضاي أن تعلمها معالم ديني فقال: ذلك ذلك يا رب إن شئت ذلك فقال عز وجل: قد شئت ذلك وقد زوجتكما فضمها إليك فقال: أقبلي فقالت: بل أنت فأقبل إليّ فأمر الله عز وجل لآدم أن يقوم إليها فقام إليها ولولا ذلك لكن النساء هن يذهبن إلى الرجال حين خطبن على أنفسهن فهذه قصة حواء.

(١) البار ١١: ٢٢٦ كتاب المختصر للحسن بن سليمان نقلاً من كتاب الشفاء والجلاء بإسناده عن معاوية بن عمار قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن آدم أبي البشر أكان زوج ابنته من ابنه فقال: معاذ الله والله لو فعل ذلك آدم عليه السلام لما رغب عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وما كان آدم إلّا على دين رسول الله صلى الله عليه وآله! فقلت: وهذا الخلق من ولد من هم ولم يكن إلّا آدم وحواء؟ لأن الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾ [النساء: ١] فأخبرنا أن هذا الخلق من آدم وحواء فقال عليه السلام صدق الله وبلغت رسله وأنا على ذلكم من الشاهدين فقلت ففسر لي يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: إن الله تبارك وتعالى لما اهبط آدم وحواء إلى الأرض وجمع بينهما ولدت حواء بنتاً فسماها عناقاً فكانت أوّل من بغى على وجه الأرض فسلط الله عليها ذئباً كالفيل ونسراً كالحمار فقتلاها ثم ولد له أثر عناق قابيل بن آدم فلما أدرك قابيل ما يدرك الرجل أظهر الله عز وجل جنيته من ولد الجان =

المجال؟ لا يشير النص إلى أيٍّ من هذه أو تلك، حيث الهامة المقصودة في ذلك العرض لا تعني شيئاً من هذه أو تلك، بل هي بيان الحال عن طبيعة الإنسان وسجيته لو خلي وطبعه، ومدى هتك الحسد وقتله إلى حتفه، وصدى القتلة المجرمة الحاسدة، والمسؤولية الكبرى الجماعية، ومحتد التقوى بين النفوس المحترمة، وخطر الطغوة بين الناس النسناس، التي تتهدم بها حيوية الناس من الأساس، في كافة النواميس الإنسانية الخمسة.

وتراهما ﴿قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ واحداً كما يخيَّل من ظاهر الإفراد في النص؟ أن اشتركا في تقريبه وهما في النية مختلفان؟ ولا يُعرف تقبلٌ ظاهر يصدقانه معاً لأحدهما وعدمه للآخر! إنه لأقل تقدير اثنان، والقربان مصدر لا يثنى أو يجمع، فالقربان هنا - إذاً - اثنان مهما اختلفا شكلياً وفي مادته غنماً وزرعاً أم اتحدا، ثم وفي لفظ الإفراد إيحاء إلى وحدة الاتجاه - رغم اختلاف النية في القربان.

وبطبيعة الحال كان التقبل لأحدهما دون الآخر محسوساً لهما لا يُنكر، إذ لم يكن الآخر ليصدق ردَّه وتقبُّل الأوّل بمجرد الإيحاء الخبر، ولم يكُ يوحى إلى الآخر إذ لم يك تقياً، أم ولا إلى الأوّل إذ لم يثبت وحيه النبوءة،

= يقال لها جهانة في صورة أنسيته فلما رآها قابيل ومعها فأوحى الله إلى آدم أن زوج جهانة من قابيل فزوجها من قابيل ثم ولد لآدم هابيل فلما أدرك هابيل ما يدرك الرجل اهبط الله إلى آدم حوراء واسمها ترك الحوراء فلما رآها هابيل ومعها فأوحى الله إلى آدم أن زوج تركا من هابيل ففعل ذلك فكانت ترك الحوراء زوجة هابيل ثم أوحى الله ﷻ إلى آدم: سبق علمي أن لا أترك الأرض من عالم يعرف به ديني وأن أخرج ذلك من ذريتك فانظر إلى اسمي الأعظم وإلى ميراث النبوة وما علمتك من الأسماء ولا في العقوبة إذ أن ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشّورى: ٤٠] بل المشابهة فقط في الشرف فكما أن قتل مؤمن لإيمانه قتل للإيمان ككل، كذلك قتل إنسان لأنه إنسان قتل للإنسانية شرفياً كما أن تكذيب رسول لأنه رسول تكذيب للرسالات كلها، وتصديق رسول لأنه رسول تصديق للرسل كلهم كذلك القتل والإحياء، فلا يشهر القتل إلّا عمده القاصد دون الخطاء.

وعلى ثبوته لم يكن الآخر ليصدق وحيه ولا نبأه، فليكن خارقة محسوسة في المتقبَّل علامة النجاح.

إذاً فكأنه كان «قرباناً تأكله النار» علامة النجاح، والآخر لم تأكله النار علامة السقوط، كـ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[1]! ولأن «قرباناً تأكله النار» كان علامةً للرسالة، فكان الخلاف بين ابني آدم حول وراثة النبوة عن آدم، أم وقصة الزواج، ونسكت عما سكت الله عنه.

ترى وما هي ردة الفعل من المردود قربانه؟ أيحاول في إصلاح نفسه فتُقَبَّل قربانه كما تقبل من الآخر، أم يكظم غيظه دون إصلاح ولا إفساد؟ كلّاً! بل هي قولة بغيضة ثم فعلة شذيذة حضيضة: ﴿قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ...﴾ حسماً لمادة التفاضل وحياة التعاضل، وهذه ثالثة ثلاثة مما يحتمل في مسرح السقوط، وما أجهلها وأرذلها! ثم وما أعضلها حالاً واستقبالاً؟.

هنا «فتُقَبَّل» بصيغة المجهول توحي بغيب القبول من علام الغيوب، وأنه هو المتقبِّل دون حمل أو فرض من أحدهما وتركه من الآخر، فلا جريرة - إذاً - له توجب الحفيظة عليه وتهديده بالقتل، إذ لم تكن له يد فيه إلّا يد التقوى، التي هي رصيد القبول من أيٍّ كان، دون يد الطغوة التي هي رصيد الأفول والذبول.

فخاطر القتل هو أبعد ما يرد على النفس وأردئه في هذا المجال: «تقريب القربان».

وعلى أية حال ﴿قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ...﴾ حتماً لا مردَّ له، أو وحتى إذا

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٣.

عكس الأمر؟ كأمه نعم، أم إلّا إذا عُكِس الأمر، وليس الله ليعكس أمر التقوى والطغوة فوضى جزاف، إذا ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾! حتماً لا مردَّ له.

ترى وما هو جواب الآخر، هل هو ردٌّ بالمثل «وأنا لأقتلنك» أو «لأقاتلنك»؟ كلّا! حيث الناوي للقتل لا يستحق القتل ولا القتال، ولا غير المتقبّل قربانه إذ لم يرتدَّ به بعدُ عن الدين.

بل هو كلمة إصلاحية صالحة، تبييناً للموقف المعادي لكي يهتدي إلى هداه، أم يكف عن أذاه: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ توجيهاً رقيقاً رفيقاً للمتهدِّد بالقتل أن يتقي الله كما هو اتَّقاه، وهداية إلى الطريق المؤدية إلى القبول.

فما ذنبي إذ تُقَبِّل مني تقوىً ولم يتقبل منك طغوىً، فهل ترجو تقبلاً منّا معاً على سواء؟ أم ردّاً علينا على سواء؟ وهما تسوية ظالمة والله منها براءٌ! أم ترجو تقبلاً منك رغم طغواك، ورداً عليّ رغم تقواي، وهذا تقديم للمفضول على الفاضل وما أظلمه!.

قل لي صراحاً ماذا تريد مني لأعطيك إياه إن قدرت ورضى الله بديلاً عن قتلي؟.

نرى الطاغية لا يحير جواباً لأنه منغمر في طغواه، فائر مرجل غيظه إذ سقطت مُناه، فهو مصمِّم على مغزاه وأن يرمي مرماه، والمتقي يشرح متواصلاً واجهته الصالحة أمام التهديدة الكالحة الطالحة.

فـ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ضابطة صارمة لا تستثنى طول خط الحياة بكل خيوطها، فتقريب القربان أم أية عبادة أم أيُّ تقريبٍ كان لن يجد مجالاً لتقبله إلّا بالتقوى الصالحة له وقَدرَها ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1] فلا مجازفة في تقبّل الأعمال - كما فيها - عند الله، وكل شيءٌ عنده بمقدار.

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

ضابطة ثابتة تجعل الأعمال الناتجة عن غير تقوى حابطة مهما أبرقت وأرعدت في ظواهر الحال، وهنالك تتخربط الحسابات الخابطة عند النسناس، الذين ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(١) (٢).

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

(٢) نور الثقلين ١: ٦١٤ في كتاب معاني الأخبار بسند متصل عن الصادق عليه السلام قال: إن من اتبع هواه وأعجب برأيه كان كرجل سمعت غثاء العامة تعظمه وتصفه فأحببت لقاءه من حيث لا يعرفني لأنظر مقداره ومحله فرأيته قد أحدق به كثير من غثاء العامة فوقف منتبذاً عنهم متغشياً بلثام انظر إليه وإليهم فما زال يراوغهم حتى خالف طريقهم وفارقهم ولم يقر فتفرق القوم لحوائجهم وتبعته أقتفي أثره فلم يلبث أن مر بخباز فتغفّله فأخذ من دكانه رغيفين مسارقة فتعجبت منه ثم قلت في نفسي لعله معاملة، ثم مرَّ بعده بصاحب رمان فما زال به حتى تغفّله فأخذ من عنده رمانتين مسارقة فتعجبت منه ثم قلت في نفسي لعله معاملة ثم أقول: وما حاجته إذاً إلى المسارقة؟ ثم لم أزل اتبعه حتى مرَّ بمريض فوضع الرغيفين والرمانتين بين يديه ومضى وتبعته حتى استقر في بقعة من الصحراء فقلت له يا عبد الله لقد سمعت بك خيراً وأحببت لقائك فلقيتك ولكني رأيت منك ما شغل قلبي وإني سائلك عنه ليزول به شغل قلبي، قال: وما هو؟ قلت: رأيتك مررت بخباز وسرقت منه رغيفين ثم بصاحب الرمان وسرقت منه رمانتين، قال: فقال لي قبل كلّ شيء حدثني من أنت؟ قلت رجل من ولد آدم من أمة محمد صلى الله عليه وآله قال: أين بلدك؟ قلت: المدينة، قال لعلك جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم؟ قلت: بلى فقال لي: فما ينفعك شرف أصلك مع جهلك بما شرفت به وتركك علم جدك وأبيك لئلا تنكر ما يجب أن يحمد ويحمد ويمدح فاعله، قلت: وما هو؟ قال: القرآن كتاب الله! قلت: وما الذي جهلت منه؟ قال: قول الله عز وجل: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وإني لما سرقت الرغيفين كانت سيئين ولما سرقت الرمانتين كانت سيئين فهذه أربع سيئات، فلما تصدقت بكل واحد منهما كان لي بهما أربعين حسنة، فانتقص من أربعين حسنة، أربع بأربع، بقي لي ست وثلاثون حسنة، قلت ثكلتك أمك أنت الجاهل بكتاب الله أما سمعت الله يقول: إنما يتقبل الله من المتقين، إنك لما سرقت الرغيفين كانت سيئتين ولما سرقت الرمانتين كانت أيضاً سيئتين، فلما دفعتهما إلى غير صاحبهما بغير أمر صاحبهما كنت إنما أضفت أربع سيئات إلى أربع سيئات ولم تضف أربعين حسنة إلى أربع سيئات، فجعل يلاحظني فانصرف وتركته...

وإنه «لا يقل عمل مع تقوى وكيف يقل ما يتقبل»[١] فـ «إن الله لا يقبل عمل عبد حتى يرضى عنه»[٢].

وهل إن تقبل عمل يقدَّم لله منوط بالتقوى المطلقة في كل الأعمال، فلا يتقبل عمل صالح بشروطه من غير العدول في كل الأعمال؟ وهذا خلاف الضرورة كتاباً وسنة!.

أم التقوى مشروطة في العمل نفسه المتقبَّل إيماناً ونية وفي العمل نفسه، مهما كان العامل لا يتقي في سواه، بل ولا في مقدمات نفس العمل، وهذا هو القدر المتيقن من الآية، فإن متعلِّق التقبُّل هو القربان المقرَّب لله، دون سائر الأعمال أو مقدمات هذا القربان، فلتكن التقوى التي هي شريطة تقبل العمل، هي التي في العمل نفسه بنيته والإيمان الدافع له، مهما كان التقبل أوفر ممن يتقي في سواه من عمل أو مقدمات لما قربه.

فالآتي بعمل صالح دون نية صالحة، أم عمل غير صالح بنية صالحة، لا يتقبل منه ذلك العمل، لأنه غير متقٍ فيه، حيث التقوى تحلِّق على ظاهر العمل وباطنه، ونفس «يتقبل» اللَّامح إلى تكلُّف القبول، مما يدل على أن العمل لا يقبل إلّا بشروط صالحة دونما فوضى جزاف.

وهنا الأخ المهدَّد بالقتل لا يُجابه أخاه بخشونة، بل بكل ليونة، فلا يقول إنك غير متق فلم يتقبَّل منك، أو إنني متَّقٍ فتُقبِّل مني، بل كضابطة سارية المفعول كيفما كان انطباقها: قال إنما يتقبل الله من المتقين والتقبل وعدمه هما من فعل الله، وليس منّا إلّا ظرف التقبل وعدمه، فهل أنا مجرم إذ حصلُت على ظرف التقبّل، فأستحق أن أُقتل؟!.

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢٧٤ أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب التقوى عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: . . .

(٢) المصدر أخرج ابن أبي شيبة عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: . . .

أترى من تقواه ألّا يبسط يد الدفاع عن نفسه إلى من يبسط إليه يد القتل؟ والدفاع عن النفس وعمَّا دونها حق طبيعي لكل ذي نفس، كأصل من أصول الشرعة الأحكامية!.

النص هنا ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ لا «لا أدافع عن نفسي» فهنالك يدان تُبسطان إلى من يريد القتل، يدُ القتل وهي أثيمة كَيدِ القاتل المتطاول، وهذا التقي ينفيها، ثم يد الدفاع حسب الضرورة والمستطاع ولا ينفيها، فعلَّه اغتاله[1] فيد الدفاع - إذاً - غير مبسوطة قضية المفاجأة، أم قاتله، فيد الدفاع مبسوطة ولكنه اغتيل ولم ينفعه الدفاع.

ثم ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ﴾ دون «لا أبسط» تنفي محاولة القتل من التقي على أية حال، لمكان الدوام المستفاد من صيغة الفاعل، فـ ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ هذا - ثم يبين ظاهرة تقواه مع من يريد قتله بطغواه:

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾

اللّهم إلّا باستحقاق القتل، وأما أنه صمم على قتلي أمّن سواي، أم بسط يده للقتل إليّ أم إلى من سواي، لأنني سقطت في محنة إلهية كما

(١) في تفسير العياشي عن هشام بن سالم عن حبيب السجستاني عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما قرب ابن آدم القربان فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال: تقبل من هابيل ولم يتقبل من قابيل، دخله من ذلك حسد شديد وبغى على هابيل، ولم يزل يرصده ويتبع خلوته حتى ظفر به متنحياً من آدم فوثب عليه وقتله فكان من قصتهما ما قد أنبأ الله في كتابه مما كان بينهما من المحاورة قبل أن يقتله الحديث...

أقول: واللامح منه أن قتله كان غيلة مفاجئة، فلم يمكن من نفسه ولم يجد ظرفاً للدفاع عن نفسه.

وفي البحار ١١: ٢١٨ في قصة هابيل وقابيل إلى أن قال فقال قابيل: لا عشت يا هابيل في الدنيا وقد تقبل قربانك ولم يتقبل قرباني وتريد أن تأخذ أختي الحسناء وآخذ أختك القبيحة فقال له هابيل ما حكاه الله فشدخه بحجر فقتله روي ذلك عن أبي جعفر عليه السلام.

سقطت، أمّاذا من دوافع غير عادلة فـ ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ فإنها - إذاً - يد قاتلة متطاولة دون أي سبب، إلّا أن مقاتله صمم على قتله، أم بسطت إليه يده ليقتله، وشيءٌ منهما لا يبرِّر بسط اليد القاتلة، اللّهم إلّا بسطاً للدفاع إذا هو بسَطَها للقتل أمّا دونه، فلم يكن من المقتول - إذاً - إفراط الظلم بيد قاتلة، ولا تفريط الانظلام بيد غير دافعة، والنص إنما ينفي اليد المُفْرِطَة، دونما تصريحة ولا إشارة إلى يد مفرِّطة.

ولماذا ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾؟ لـ ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وبسط اليد إلى نفس غير مستحقة للقتل بقصد القتل محرم في شرعة الله، لا ابتداءً، ولا دفاعاً، فإن قُتِل المهاجم بضربة الدفاع قدرَ الضرورة لم يكن قتلَ عمد وفيه دية الخطأ، وأما قتله عن تقصُّد لأنه مهاجم فهو قتل عمد يتطلَّب القود.

فلا مبرر لقتل المهاجِم عمداً، فضلاً عمن ينويه، اللّهم إلّا مهدور الدم بسبب آخر فمسموح قتله حسب الضوابط المقررة، وإن لم يهاجم، والنفس المحترمة لا تُقتل بسبب تقصُّد القتل أو هجمته، اللّهم إلّا فلتة الدفاع القاتل من غير تقصّد فقتل خطأ.

وفي الدفاع نفسه - أيضاً - لا تقابل إلّا بالمثل حسب الضابطة المقررة ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[1] فالضارب بما لا يقتل حسب العادة لا يُضرب إلّا بمثله، دون زيادة فضلاً عما يقتل، فإن قتل بضربة زائدة فمسؤول عن الزيادة، أم بضربة قاتلة فقتلٌ شبه عمد مهما لم يقصده!.

ولقد ارتسم هنا نموذج بارع من الوداعة والسلام والتقوى في هذه المواجهة الخطيرة، في أشد المواقف، استجاشة للضمير الإنساني، وحماساً

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

للمعتدَى عليه ضد المعتدي. . . وعلّ توصيف الله برب العالمين تلميحة أن ما هباه الرب لا يسمح لغيره أن يسترجعه.

وقد كان في هذا القول اللين ما يفتأ الحقد المكين، ويهدِّئ الحسد الدفين، ويُسكن الشر ماسحاً على الأعصاب المهتاجة المحتاجة إلى التليين، حيث يرد صاحبها إلى حنان الأخوة واللين، وبشاشة الإيمان الأمين، وذلك في الشطر الأول من إجابته، وفي الشطر الثاني إخافة وإنذار من سوء العاقبة وآجل الجزاء للظالمين:

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾:

ذلك التبشير وهذا الإنذار كانا كافيين لأخيه أن يصداه عن بغيه فلا يمد في غيِّه ولكن لا حياة لمن تنادي! أتراه بعدُ يريد لأخيه أن يقتله فيبوء بإثمه إلى إثمه فيكون إذا من أصحاب النار؟

وذلك بعيد كل البعد عن ساحة العلم والتقى اللذين عرفناهما من هذا التقي!.

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ﴾ ليس مطلقاً وعلى أية حال، إنما هو على فرض القتل حين يهاجم وتكلُّ يد الدفاع، فالقاتل - إذاً - مسؤول عن تعمُّده هنا وفي الأخرى، وقد أراد الله للقاتل ظلماً أن يكون من أصحاب النار وذلك جزاءً الظالمين، وأراد أيضاً أن يبوأ بإثمه نفسه قتلاً وسواه، وبإثم المقتول فيما دون القتل من إثم إن كان، فيما دون حق الناس، فيصبح المقتول ظلماً - وهو تقي - خالصاً عن ذنوبه، يتحملها القاتل إلى ذنوبه[1].

(١) الوسائل ١٩: ٧ صحيحة عبد الرحمن بن أسلم قال قال أبو جعفر عليه السلام من قتل مؤمناً متعمداً أثبت الله على قاتله جميع الذنوب وبريء المقتول منها وذلك قول الله عز وجل: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ. . .﴾ [المائدة: ٢٩] ورواه البرقي في المحاسن مثله.

فقد أراد ما أراده الله لا سواه، إن حصل قتل لا على أية حال ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كضابطة تستثني عن أخرى هي ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[(١)] فالنفس القاتلة ظلماً تزر وزر المقتولة ظلماً، استثناءً من الضابطة العامة، وقد تزر الوازرة الأولى مثل ما تزره كل وازرة أخرى فـ «لا تُقتل نفس ظلماً إلّا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل»[(٢)].

أو يقال إن القاتل صدَّ على المقتول باب المغفرة لسيئاته والمزيد لحسناته فليجبر بحمله من إثم المقتول جزاءً وفاقاً فليست قاعدة الوزارة هنا مستثناة.

أترى ذلك التقي النقي في حساب الله كان آثماً حتى يبوأ أخوه إثمه إلى إثمه؟ وهب أن الله هكذا يريد إن وقعت واقعة، فما للأخ المؤمن أن يريد لأخيه هكذا حِمل، وإنما يحق له أن يترجى نجاته من كل إثم، آسفاً على أن يهوي إلى هوّاته!.

علَّه اعتبر نفسه آثماً تواضعاً لربه، فلا يحسب طاعاته لائقة بجنابه، ولكنه إذاً ليس إثماً يزره قاتله إلى إثمه، بل هو طاعة فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين!، أم يعني من «إثمي» قتله كشخصه مهما أريد منه كل آثام القتيل ظلماً كآخرين، و«إثمك» هو الذي جعله لا يتقبل قربانه، فـ «إثمي» هنا من إضافة المصدر إلى مفعوله: الإثم الواقع عليّ من قتلك إياي، كما هو

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.
(٢) الدر المنثور ٢: ٢٧٦ أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: وأخرج مثله في المعنى الطبراني عن ابن عمر عنه ﷺ.
وفي نور الثقلين ١: ٦١١ في الخصال عن جعيد همدان قال قال أمير المؤمنين عليه السلام أن في التابوت الأسفل من النار اثني عشر ستة من الأولين وستة من الآخرين ثم سمى الستة من الأولين ابن آدم الذي قتل أخاه وفرعون وهامان الحديث.